

الصمت

للكاتب الروسي ليونيد أندرييف

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صديقي



— ١ —

في ليلة من ليالي أيار
معمرة إضحية ، والبلابل
في القمراء تلمع شادية
مشجية ، أقبلت أولجا
ستبانوفنا على زوجها
الأب إجناتي وهو جالس
إلى مكتبه . وكانت
أساور وجهها ناطقة
بأمض الحزن وأوجعه ،
والسراج في يدها مهتر
مرجف . فلهذا انتهت لمست
براحتها منكبه وقالت
مختنقة الصوت مجهشة :
— أبتاه ، لنصعد

إلى ابنتنا فيروتشكا !

فتجههم الأب إجناتي وقطب حاجبيه من فوق
عدساته دون أن يلتفت إليها . وظل شاخصا ببصره
في الفضاء طويلاً حتى أسقط في يدها ، فقلبت
كفها الأخرى تقيب الموموم الجزع ، ونهالكت
على أريكة خفيفة هناك وقالت :

القصة الروسية من أحق القصص بالناية ، وذلك
لطابع الذي انفردت به ، وللإنسانية العالية التي تشمل
عليها ، ولأنها طليعية صادقة ، ولتأثيرها العميق
واستنارتها للمواطن ، وأخيراً لما فيها من الدلالة على
نفسية الشعب الروسي

وصاحبنا ليونيد أندرييف من أقرب الفصاحين
الروس الكبار عهداً إلينا . وهو ينظر إلى الأشياء
على نحو خاص به ، ويصورها بلمسات قوية من ريشته
المنفحلة تظهر النور والظل بأكثر أحجامهما وأبلغ
تباينهما

وفي كل قصة من قصصه فكرة مجردة يحرك حولها
الأشخاص والحوادث ، وهو مع هوله يحفظ التوازن
ويشعر بأنه ليس في الدنيا شئ يثرب ولا خير يحسن
وأندرييف كمعظم معاصريه من الفصاحين
والكتاب نشأ من طبقة الشعب وعرف الضك والجوع
وابتلى بالكآبة والأسى . وقد تخرج في القانون
واشتغل أول أمره بالرسم ثم بالصناعة ، ولكنه
لم يكد ينفر على الناس قصة « الصمت » حتى كانت
له منها نباعة الذكر والشميرة الذائنة . وهي مثال رائع
على طريقتة في كتابة القصة

— ما أقسا كما كليكما !

قالت ذلك بصوت
وئيد مع التشديد أبلغ
التشديد على « كليكما » .

وقد تقلص وجهها المنفتح
المتحن بأمارات من الألم
والعنت ، وكأنها أرادت
أن تفصح بسمائها
وأمارات محباها عن مبالغ
ماتعاني من قسوة القوم :
زوجها وابنتها

وأرسل الأب إجناتي
ضحكة ونهض . ثم أطبق
كتابه وخلع عدساته
ودسها في علبتها وأطال
التفكير مكتئباً وقد

استرسلت على صدره أجمل استرسال لحية جثة
وخطها المشيب ، وكانت تملو وتهبط في هواة
مع أنفاسه الممتلجة العميقة

وبعد هنيهة قال : « حسن . تذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت

متوجس متراف : « وإنما رجائي اليك يا أبتاه ألا تمنعها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى إليها خشبي ضيق ؛ فكان ينسج وبصر تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة ، وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحني حتى لا تصطدم هامته بسقف السلم ، وكانت زوجته تتقدمه في ثوبها الأبيض فلمس ردفها وجهه فانقبضت أساريره وعبس متمللاً متبرماً . وولج الغرفة وهو على تمام اليقين بأنهما في حديثهما مع فيرا ابنتهما لن يخرجاً بطائل

وقالت فيرا : « يا لله ! هذان أنما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عارية وبقيت ذراعها الأخرى على اللحاف الصيفي الأبيض بحيث يتمذر التمييز بينهما لفرط بياض ذراعها وشفوف لونها وبرودة مجسها فابتدرتها الأم بسدائها : « فيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكت . وقال الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من جفاء صوته وخشونته :

— فيرا : خبرينا ماذا بك ؟

فطلت فيروتشكا صامتة

وعاود الأب إجناتى خطابه : « فيرا : أترين أمك وأنا غير أهل لنا جانا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك لا ألسنا نحبك ؟ وهل لك من هم أقرب إليك وأمس بك منا ؟ بئى إينا شجوك وصدقنى أنا الشيخ المحرب أنك واجدة بعدها بمض الراحة ، وكذلك نحن . انظرى إلى أمك المعجوز وكيف عذابها . . . فيروتشكا . . . وأنا — وهنا تهـدج صوته كأنما انشعب شئ فيه شطرين — وأنا ، أهون على ، تحسبينه يهون ؟ كأنى لست أبصرك نهـب لوعة . . . ولكن ما هي ؟ وأنا ، أبوك ، على جهل بها ، أصبح هذا ؟

ولكن فيروتشكا ما برحت صامتة . وحيالها الأب إجناتى يوالى مسح لحيته في تحفظ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف أصابعه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى في حديثه يقول :

— خالفت مشيتى وذهبت الى بتروغراد —

فهل لمنتك على مخالفتك ؟ أكنت يوماً عليك بالمال ضيقاً ؟ أتقوين انى لم أك برأ بك حدباً عليك ؟ إذن ، لم لا تتكلمين ؟ انظرى ، أى خير أصبت من بتروغراد !

وانقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل كالعميان لخطاره بناءً من الجرانيت هائل رهيب ، حافل بأخطار راصدة كامنة ، مكتظ بخلق غريبة أطوارهم ، جاسية مشاعرهم . وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كانت تلفها وضياها ، فجاشت في نفس الأب إجناتى نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمة على ابنته ، وهى ما فتئت صامتة ، صامتة فى تشبث وعناد أما فيروتشكا فأجابته بجفاء وهى مطبقة جفניה : — لا دخل ألبنة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا نئى بي ، والأولى أن تذهباً للنوم ، فالساعة متأخرة

فأنت الأم : فيروتشكا : إطمئنى إلى بمررتك يا بنيتى !

فقاطعتها فيروتشكا نافذة الصبر : كفى يا أمى ! وجلس الأب إجناتى على مقعد وجمل بضحك ، ثم قال منكمها : « حسن والله ! ليس فى الأمر شئ . بعد هذا كله ؟

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ؛ وقد أقامت صمدتها واستوفزت فى فراشها :

— أبت ! أنت تعلم حى لك ولائى ، ولكنى إنما أشعر بخمود شديد ، وسيزول هذا كله ..

فأنها في ذلك المساء ألفت بنفسها تحت بحجلات
القطار فشطرها نصفين

وقام الأب إجناتي نفسه بدفنها ، ولم تشهد
زوجته حفلة الصلاة عليها في الكنيسة ، لأن نني
فيروتشكا كان صدمة لها أصابها بالفالج . فقدت
كل حراك لقدميها وذراعيها ولسانها . فبقيت
طريحة في غرفة محجوبة الضوء ، وعلى مقربة منها
تدق الأجراس في القباب معولة نادية ، وإنها
لتسمع موكب الجناز خارجا من الكنيسة وتسمع
المرتين ينشدون في سرورهم أمام المنزل ؛ واقدهت
لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها
يدها . وأرادت أن تقول : « الوداع يا فيروتشكا »
ولكن لسانها لصب في فمها هامدا مورما نفيلاً .
وهكذا كانت طريحة بلا حراك حتى ليحبسها الرائي
هاجمة في ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وتشهد صلاة الجناز في الكنيسة جمع حافل من
معارف الأب إجناتي والغريب عنه . وكاهن مترحم
على فيروتشكا متوجع لمصرعها ، وهم في نفس
الوقت يتتبعون حركات الأب إجناتي ونبرات
صوته ليستدلوا بها على حزن عميق وجوى لاعج .
إذ كانوا في قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما في
خافه من عنجهية وعجرفة ، واشدته وصراوته مع
التائبين المنيبين على بديه ، فضلا عن أنه حسود
جشع لا تفوته فرصة بتقاضى فيها هذا أو ذاك من
أهل دائرته أكثر من حقه . فالكل هنا يودون
التشفي برؤيته مثلاً كسيراً ، ويودون أن يروا
إقراره على نفسه بأن مصرع الفتاة يركبه منه إثم
مضاعف ، باعتباره أباً فظا غليظ الطبع ، وبصفته
قساً ظهر بحجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من
الخطيئة . ولذلك أمعنوا في ملاحظاته والتطالع إليه ،

والحق أنه أولى لسكا الذهاب للنوم ، وإلى لراغبة
فيه أيضاً . غداً أو في حين آخر ، سيكون لنا
متسع للحديث

فهب الأب إجناتي دفعة حتى ارتج مقدمه
وصدم الحائط وراءه ، وأخذ بذراع زوجته قائلاً :
« لنذهب »

فأنت هذه : « فيروتشكا . . . ! »

فصاح بها الأب إجناتي : قلت لك فلنذهب .
وإذا كانت قد نسيت الله ، فهل ننساها مثلها ! ولماذا
واجتنبها للخروج في شيء من العنوة والقسر .
وكانت وهما يهبطان السلم بحجر أقدامها جرأ يزداد
تناقلاً وتراخياً . وغمغمت في همسة منغضية : أف منك !
أنت أيها القس الذي جمعتها كذاك ، وعنك دون
سواك أخذت هذا الطبع . وإنك لستول عنه .
آه ياربي ، ما أتعسني !

وجملت تولول وكفة الدمع مطروفة الجفن حتى
لم تعد تتبين مواقع خطاها ، بل كانت تاركة قدميها تهبط
الدرج كأنها تنساقط إلى هاوية ترغب في التردى فيها
ومن ذلك الحين صحت عزيمة الأب إجناتي ألا
يكلم ابنته . وكأنما لم تظن الابنة إلى هذا التغير
منه ، وظلت كعهدها تضطجع آونة في غرفتها
وآونة تعمد إلى الخروج . وكانت كثيراً ما تمسح
بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت
الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكرهها ، فباتت
وهي بالأمس الواهة بالزاح والضحك أبعد أهل
الأرض عنهما ، فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد
تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل

قلنا إن فيروتشكا تخرج أحياناً للتنشيط والتنزه
تحدث بعد أسبوع من المقابلة الآتفة الذكر أن
خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشاء القدر
ألا يراها أبواها من بعد حية بينهما رائحة أو غادية ،

نظيف مرتب والمقاعد الكبيرة مسرلة في أغطيها
البيضاء كأنها الموق في أكفائها . وفي إحدى
النوافذ قفص معان ولكنه خاو وبابه مفتوح .
وحين ذاك نادى الأب إجناتي : « نستاسيا ! » فبدأ
له أن صوته أجش ، وأحس أنه يسىء صنعا بعيد
جنازة ابنته أن يرفع الصوت الى هذا الحد في تلك
الحجرات الهادئة ، فعاود النداء بصوت أكبر
تلطفًا وخفوتًا : « نستاسيا ! أين الكناري ؟ »
فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة التحجب

منتفخ وارم ولونه قان كالجزر
وأجابت بجفاء : — لا أدري . لقد طار
فقطب الأب إجناتي حاجبيه مغضبا ،
وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ »
فأجهشت تبكي وتسمح دموعها بذوائب المنديل
المصوب به رأسها . وقالت :
— إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتي الصغيرة
الراحلة ، فكيف لي بحبسه ؟
وخيل الى الأب إجناتي نفسه أن الكناري
الصغير القاقع اللون السميد الذي كان دأبه التفريد
شائخا برأسه قد كان حقيقة روح فيروتشكا ، وأنه
لو لم يطر الكناري لما صح القول بموت فيروتشكا ،
فاشدت على الطاهية نغمته وصرخ بها :

— اغربى عن وجهي !
ولما لم تبادر توالى الباب زاد قائلا : « مجنونة ! »

— ٢ —

ومنذ يوم الجنازة والصمت نخم على البيت .
وليس المراد بالصمت هنا السكون ، فان السكون
إنما هو عدم الجلبة . وأما هنا فالصمت معناه
أن الذين التزموا الصمت لا جرم في مقدورهم
الكلام إذا شاءوا . وهذا ما يقع في نفس الأب
إجناتي حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتها

ولكنه وقد آنس أن أنظارهم الى كاهله المريض
الضليع يلتصقون انحناء تحت وقر الفادحة — لم
يأل جهدا في نصب قامته وإقامة صعدته . فكان
في تلك الساعة أقل تفكيرًا في الابنة الفقيدة منه
في صيانة كرامته

فألم كرزوف : « قس صمدت على الغمز قناته
وصاب على المعجم عوده » وكرزوف هذا نجار يدين
النفس بثمن بعض الأطار . ولقد شفع ملاحظته
بنغضة بالرأس الى جهته

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة
الشطاط سار الأب إجناتي الى المدفن ، وعلى هذه
الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة
زوجته انحنى كاهله قليلا ، ولعل هذا راجع الى أن
ارتفاع الباب دون قامته . ولما كان قادمًا من وضج
النور لم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها ،
فلما أن تبينه وجدها هادئة ، وأنه لا دمع في عينيها ؛
وليس بهما نقمة ولا حزن . فهما خرساوان
صامتتان صمت ألم وعناد ، وكذلك جسمهما
البدن المترخي المرتكن الى حاجر الفراش
فسألها : والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟

ولكن شفتيها خرساوان وعينيها صامتتان .
فوضع الأب إجناتي راحته على جبينها ؛ فإذا هو
خصر رطب ، ولم يبد من أولجا استبائنا أدنى دلالة
على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحته عن
جبينها كانت عينا غائرتان سوداوان تشخصان اليه
دون أن يطرف لهما هذب ، وتكاد تكون الحدقة
منهما كلهما فاحمة بسبب تعدد انسانيهما ، ولم يكن
فيهما حزن ولا نقمة

فغمغم الأب إجناتي ، وقد بردت أطرافه
وارتعدت فرائضه : « حسن ، أما ذاهب الى غرفتي »
واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شيء كمنهده

في المنزل حتى ليخيل أن في الامكان سماعه . واستمرت الحال على هذا المنوال فوقر في نفس الأب اجناتى أنه يسمع الصمت .

وكان الأب اجناتى في كل صباح بعد القربان المقدس يقصد الى قاعة الجلوس فيأخذ بصره في لوحة واحدة تفص الكنادى الخاوى وسائر الأثاث في ترتيبه المهود . فيجلس في أحد المقاعد الكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان أماً عجيباً . فالقفص صامت في وداعة ولطف . والأمى والدموع والضحك الطاعن الفقيد جميعاً يأنسها الرجل في هذا الصمت . وكان صمت الزوجة مع قيام الجدران دونه لا يزال عنيداً ثقيلاً عابيه كالرصاخص - وربعاً ، ربعاً حتى ليأخذه برد القور في أشد الأيام حمارة قيط . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالوت . ثم كان الصمت كأنما يشق بنفسه ، وكأنما يتهاف على التحول الى نطق ، لولا أن شيئاً له قوة الآلة وجودها يحسكه عن الحراك ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد يهتز ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون فتحفز الأب اجناتى الرغبة تشوبها الرهبة على تسقط بادرة هذا الصوت فيشد بكفيه على جانبي المقعد ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغ الصوت اليه ، ولكن الصوت ينقطع وينطوى في غمرة الصمت وهنا يهتف الأب اجناتى وقد ركبته الغضب : « عبث باطل وأضقات أحلام » . وبهت من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعمده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة في ضح الشمس . والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممردة . وفي الناحية الأخرى

الشاحصة ثقبلة حتى اسكناً استحال هواء الغرفة رصاصاً يرهق رأسه وينقض ظهره . وهذا ما يقع في نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذي انطبع عليه صورتها ، وحين يتأمل كتبها وصورتها - وهي صورة مرسومة بالألوان جاءت بها معها من يثروغراد . واقعد نحاً في نظره الى صورتها نحواً خاصاً .

فهو يتطلع أول الأمر الى جيدها حيث مسقط الضوء في الصورة فيخيل إليه أن عليه خدشاً كالذي كان على جيد فيروتشكا الميتة ، وإنه في حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وفي كل مرة يعمل الفكر للاهتمام الى سببه وعلته . فلو أن القطار هو الذي صدمها في هذا الموضع لهشم رأسها بأكمله ، ورأس فيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم داس عليها بقدمه وهم يحملون الجثة الى المنزل ، أم أنه أثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولكن إطالة التفكير في تفصيل مصرعها كان يشق على الأب اجناتى وبروعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها في الصورة ، وهما سوداوان بجلاوان أهدابهما الوطفاء تلقى تحتهما ظلاً وريفاً فيزداد بياض المقلتين نصوعاً وتبدو عيناها كأنما يحوطهما إطاران كالأطر السود المحالة بالحداد . وقد جعل لها الرسام المجهول - وهو لا شك من الفنانين الموهوبين - معنى غريباً يخيل الى الرائي أن بين هاتين العينين وبين ما تقمان عليه غشاء رقيقاً شفيفاً فهي تذكرنا بقطاء معزف البيانواللامع السوداء تلوه من غبار الصيف غشاوة خفيفة لا تكاد تبين ، وهي على خفافها تكمد من لآلاء الخشب المجلو . وكان الأب اجناتى حيناً وضع الصورة تتابعه عيناها غير ناطقتين بل هما أبداً صامتتان . وبان الصمت

واذ ذاك يهب الأب اجناتى من فراشه ، ويبسط يديه مضمومتين معا فى توسل وضراعة مناديا : « فيروتشكا ! » .

ولا من يجيب الا الصمت .

وفى ذات مساء قصد الأب اجناتى إلى غرفة أولجا استبائشنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع وجلس عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظرها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

— أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن فيروتشكا . أسمعيني ؟

ولكن ناظرها صامتان . فرفع الأب اجناتى عقيرته ، واشتد — مثل شدته مع المترفين — فى خطابها :

— أعرف أنك تعدينى المتسبب فى مصرع فيروتشكا . ولكن ، مهلاً ! أكنت أقل منك حياءً لها ؟ إنك لغريبة الرأى — لقد كنت متشددآ ، فهل حال ذلك بينها وبين ما شئت ؟ لقد تناضبت عمالى عليها وأنا أبوها من حق الاعتبار ، فطأطأت صاغراً حين ارتحلت — غير حافلة باستئصال لعتى — إلى هناك ، وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعى إليها باكية تناشد فيها البقاء ، حتى أمرتك أن تكفى ؟ أمستول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما يبنى علمه عن الله والطاعة والحب ؟

وأتى الأب اجناتى لمحة على ناظرى زوجته الشاخصين ثم أشاح مستأنفاً :

— ماذا كنت صانماً معها وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت أمرها ؟ لقد أمرتها . أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان على أن آخر على قدمى الصبية الخرعوب راكماً وأنتحب كالمرأة المعجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها

سور حجري ممدود لا نوافذ له لأحد مخازن البضاعة . وكانت فى الركن مركبة وافقة كأنها نصَّب من الطين قائم ، وكان غير مفهوم سبب وقوفها هناك دواماً مع أن الساعات الطويلة تنقضى ولا يظهر عابر واحد فى هذه الطريق .

كان على الأب اجناتى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع رؤوسيه من رجال الدين ، ومع السكان فى دائرة الكنسية أثناء قيامه بفرائضه ، وأحياناً مع ممارفه يحاورهم فيها هو مأثور ومستحب . ولكنه حين يؤوب وتحتويه غرفته كان يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . وذاك لأنه ما كان ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل وأهمها والتى تهيج كل ليلة بلابله وتلمع خاطره : فيم ميتة فيروتشكا ؟؟

وقد أبى الأب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بإمكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحى لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش فيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن « تكلمى ! » . فاذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . واقد حفظت عيناها المنمضتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان فى جلاء فيروتشكا تستوفز فى فراشها وتقول مبتسمة ...

ولكن ماذا قالت ؟

إن تلك الكلمة التى لم تلفظها ، والتى بها جلاء المعضلة كلها ، تلك الكلمة تتخيل له قريية ، جد دانية . فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه ، إذن — إذن لسمعها على أنها كانت فى الوقت نفسه نازحة نائية بلا حد ولا أمل .

انبعثت من الألواح المكتسية بها الجدران ومن
الأناث وسائر ما بالغرفة ربح كريخ العطن والأحلال
وكانت الفمراء تتخلل زجاج النافذة وتنسبط
على أرض الغرفة كشرائط وضاء ، وكانت الناضد
بطلائها الأبيض الناصع تمكسها فينير أركان الغرفة
منها نور كليل شمساني . ويبدو الفراش الأبيض
النظيف وعاليه وسادتان كبيرى وصغرى كأنه شبح
من عالم الأطياف . وفتح الأب إجناتى النافذة
فاندفع الى داخل الغرفة تيار من الهواء النقي ،
يستروح السائف فى أردانه تراب النهر المجاور وعبق
الزيفونة الزهرة ، ويحمل الى التسمع المصنى نشيداً
خفيفاً لعله لقوم فى قارب على النهر يجدفون ، وفى
تجديفهم ينشدون

وخطا الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف
لا يحدث صوتاً ، ودنا من الفراش الخاوى وخرَّ
مكباً على وجهه فوق الوسائد بضمها — حيث
لا محالة كانت تضع فيروتشكا وجهها

وظل على هذه الحال طويلاً . وتعالى النشيد فى
الخارج ، ثم أخذ ينخفض حتى لم يمد مسموعاً ،
والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشعره المرسل
مشعث مهدل على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر فى مسراه ، فأظلمت الغرفة
واحلواكت ، ورفع الأب إجناتى رأسه ونادى
بصوت أفرغ فيه كل حبه الذى أطال كبتة وكظمه
بلايث ولا تصريح . وكان وهو ينادى بنصت
لما يقول ، وكأن النصت ليس هو وإنما هى فيرا
— فيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟

يا بنيتى ! مهجتي ! دى ! حياتى !

هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد علاه
الشيب وخذلاته القوى
وانفض منكباه وسرت الرجفة فى جثمانه

ما أصابها ، لست أدرى . يا لها ابنة عاقلة لاقلب لها !
ودق الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه
— لقد تجردت من الحب — هو ذاك . وأنا
على علم بما كانت تصفنى به : مستبد غشوم . وأنت
كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت ،
و ... تدلت ؟

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة
— تحبك ! بلى والله ، وترويحاً عنك لقد
اختارت هذه الميئة مبيئة شنيعة شائنة ! فانت على
القشخص والحصى المفروشة به السكة الحديدية ،
ماتت على الأقدار — كالكلاب جدلته رفقة
بالذهل على خطمه

ونغمم الأب إجناتى بصوت هامس أبح :
— ما أشد خزي ! إنه ليتولانى الخرى إذا
خرجت الى الطريق ! ليتولانى إذا خرجت من
الحراب ، ليتولانى أمام الله ! ياللاك ابنة قاسية خسيصة !
إنك لتستحقين اللعنة فى قبرك

وأتى الأب إجناتى على زوجته نظرة ثانية ،
فاذا هى مغشى عليها ، ولم تفق من غشيتها إلا بعد
ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صاممتين ليس
فيهما ما يدل على أنها فقحت مقال الأب إجناتى لها
أو لم تفقه منه شيئاً

وفى تلك الليلة ، وكانت من ليالى تموز مقمرة
ساجية دافئة يخيم السكون عليها ، قام الأب إجناتى
يدب على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة
ولا ممرضتها ، وصعد السلم إلى غرفة فيروتشكا .
وكانت نافذتها من عهد وفاة ابنته لم تفتح فكان فى
جوها حرارة وجفاف تشوبهما رائحة احتراق
خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال النهار
لوقدة الشمس . وكان إحساس الوحشة والأقواء
نجماً على الغرفة التى طالت غيبة الانسان عنها ، وقد

— تكلمى :

فكان جوابه الصمت

في اليوم التالي تناول الأب إجناتى غداءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمته إلى المدفن لأول مرة بمد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نامة ، حتى لكان النهار القاطظ في هدوئه ليلة مشمسة . على أن الأب إجناتى كدأه نصب قائمته مجاهداً ، وأدار بصره من جانب لآخر بحفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كهمده بنفسه . ولم يقطن إلى التخاذل الطارئ الفظيع بفت في ساقبه وإلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شديداً كأنما أصابها صقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة مستقيمة آخذة في ارتفاع لطيف الرنق ، وفي نهايتها باب المدفن من خشب الزيفون بظلمة سقف أبيض ملتصع ، فكانه فم مغمور الشدقين على الدوام محلولك وعلى حافته أنياب قواطع لوامع

وكان قبر فيرا موعلاً في جوف المدفن بعد نهاية الممرات المغروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يحوس طويلاً في مسالك ضيقة على محاذة الكتيبان المترجة النائمة بين حشائش مهمة مهجورة من الجميع منسية . وكان يلتقي هنا وهناك بنصب متداعية ، لوها حائل مخضر من القدم ، وحواجز منهارة منهمة ، وصفائح من الحجارة ثقلا ضخام ملقاة تهبط صدر الثرى كان بها عليه حقداً كعد الشيوخ بأسرا متجهما

وعلى مقربة من إحدى هذه الصفائح ، كان قبر فيرا . وكان المدر المشوش عليه مصفراً ذابلاً على حدائه عهده في حين كل ما حوله يانع ناضر . وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وخيلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظلال تبسط أفنانها المتأودة بأوراقها المخشوشة الوبراء على القبر

الضليع من فرعه إلى أخمصه . ثم همس منهجاً في لين وترفق كأنما ينادي طفلة :

— أبوك الشيخ المسكين يسألك . نعم يا فيرا إنه يستدطفك ، إنه ليبيكى ، ولم يكن من شأنه البكاء قط ، إن أملك يابيتى ولوعتك ، يحزان في نفسي كما لو كانا بي . بل أشد وأنيكى

وهز الأب إجناتى رأسه :

— أشد وأنيكى ، يا فيرا . وما الموت عندي ، أما الشيخ ؟ ولكن أنت ..

آه لو علمت ما كان من رقتك ، ولطافة بنيتك ومبلغ إشفافك وتهيبك !

أذكرين إذ وخزت أصبعك ونضح منها الدم فطفت تصرخين . نعم يا بنيتى !

وكنيت تحبينى حقاً ، وتشغفين بي حبا ، أعلم ذلك . وكنيت في كل صباح تقباين يدي . تكلمى عن هذا الذى يحزنك — فأتى بهاتين اليدين خائى حزنك . إنهما ما برحنا قويتين ، هاتين اليدين ، يا فيرا

واهترت خصائل شممه

— تكلمى :

وشخص بعينيه إلى الحائط ، وبسط يديه ، وصاح :

— تكلمى !

ولكن الغرفة صامتة . ثم طرقها على بعد سحيق أصداء مديدة ومقتضبة من صفير قاطرة عابرة فأدار الأب إجناتى عينين اتسع حلافهما كأن قد تمثل له شبح الجثة مبتورة الاشلاء . ثم نهض من ركوعه على مهل متسانداً ، ورفع إلى رأسه بحركة المذهول يداً مشنجة منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع . ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفي خروجه همس في حدة :

وزناع من رهبة صمتهم وبرده ، كل هؤلاء
أيضاً يقومون

وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء المربضة
الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه المشعثة ، وهمس
منادياً :

— فيرا !

وأخذ القلق أن يكون يسمع منه عريب .
فاعلى الصريح وتطلع من فوق الصليبان . فلم يكن
على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

— فيرا !

وكان صوته صوت الأب إجناتى المهود من
قديم حافاً آمراً ، وكان عجيباً أن نداء بهذه القوة
يبقى بغير جواب :

— فيرا !

ومضى الصوت ينادى عالياً ماجاً ، ولما أن
سكت لحظة ، خُيل إليه أن جواباً غامضاً دوَّى
من تحت أطباق الترى . فتلفت الأب إجناتى
حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسل لته عن أذنيه
والصقهما على المدر المخشوشن الشائك فوق القبر ،
ونادى :

— فيرا ! تسكلمى !

فأحس الأب إجناتى في فزع أن شيئاً له برودة
القبر قد نفذ الى أذنه وجد له عقله ، وأن فيرا
تسكلمت — ولكن كلامها هو ذلك الصمت
الطويل نفسه ، وظل يزداد الصمت روعة وهولاً .
ولما أن رفع الأب إجناتى رأسه من الأرض
بجاهداً ، ووجهه شاحب كوجه الميت ، خيل إليه
أن الهواء يهتز وينبض بصمت مرنان ، كأن ريحاً
صرصرأ تارت على ذاك العيلم المخوف ، وأن الصمت
ليزهق أنفاسه ويخنقه ، ولا تزال موجاته الثالجية
متقلبة في رأسه جيئة وذهاباً فيقف لها شمره

يجلس الأب إجناتى على صريح نجاء ضريح
ابنته وهو يقنهد بين القنبلة والأخرى . وجمل
يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء
الصفافية ، وكان قرص الشمس المتقدم معلقاً في مكانه
جامداً بغير حراك . وعندها فقط أحست في نفسه
عمق ذلك السكون الذى لا سكون مثله يخيم
على مدفن ، والريح هاملة لا تهفو لها نسمة تعيث
بالأوراق الجافة الميتة . وقام في خاطر الأب إجناتى
مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ولكنه الصمت ،
وقاض الصمت وطم حتى بلغ أسوار المدفن نفسها
وتسورها متتافلاً وعمر المدينة . وأما آخره فهناك
في هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين
في تعنت وعناد على الصمت

هز الأب إجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة
فيهما . وسرح نظره على قبر فيرا . وطال تأمله
لميدان الحشائش القصيرة المصوحة وقد صار
انتراعها من مناسبتها في بعض الرياض الفيحاء
الضاحية فلم يهياً لها نأصل ولا ترعرع في هذه
القرية الجديدة . واقعد عز على الأب إجناتى إقناع
نفسه بأن هنا تحت هذه الحشائش على بعد بضعة
أشبار منه ترقد فيرا ، وبداله أن تدانى الشقة الى
هذا الحد أمر غير معقول ، وإنه ليخامر نفسه منه
حيرة وتوجس غريب . إذ كيف أن هذه التي تعود
التفكير فيها على أنها طويت في ظلام الأبدية
السحيقة طلى الأبد تكون هنا قريبة ! وكيف بمقل
مع هذا أنها تلاشت من الوجود ولن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ،
بالكلمة التي يكاد يحسها على شفثيه ، أو أنه لو أوماً
بإشارته ، لأقبلت عليه من القبر ، ووقفت أمامه
ممشوقة القد جميلة كعهده بها ، ثم إنها لا تقوم
وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحس بهم

من ملافاة هذا الرجل طالما عليك بمنظرة الأشعث
الآبد، راكضا، واثيا، ملوحا بذراعيه - حين
تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها، وتسمع
حشرجة أنفاسه تتدافع بصوت أجش من فم المغفور
وانتهى الأب اجنأتى وهو فى أقصى سرعته
الى الرحبة الصغيرة التى تقوم فى آخرها كنيسة
المدفن متظامنة مخصصة. وكان على مقعد طويل عند
مدخلها شيخ مهوم بلوح كالحاج من بعيد، وإلى
مقربة منه امرأتان عجوزان من المتسولات فى شجار
وصيال تشاحنان وتبهاهلان

ولما بلغ الأب اجنأتى منزله، كان الليل قد دجا
والمصباح قد أخرج فى غرفة أولجا استبانفنا، فأقبل
عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة
المتربة وترأى على أقدام زوجته راكما وانتحب :
- أيتها الأم - أولجا - رحماك رقى لحالى
أ كاد أفقد صوابى

وصدم بحافة المائدة رأسه وانتحب نحيبا
صاخبا وجيما، شأن الكظيم ينتحب لأول مرة؛
ثم رفع رأسه على يقين من أنه بعد قليل تظهر
المعجزة فتتسكلم زوجته وترق لحاله

- يا زوجتى العزيزة

وتهاقت بكل جسمه الضخم ضارعا اليها
مستعظفا إياها. فالتقى بالنظرة الشاحصة من عينيها
السوداوين. ولم يكن فيهما رحمة ولا نعمة. ربما
تكون زوجته قد صفحت عنه وورقت لحاله، ولكن
عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة. اتبها على حالها
خرساوان صامتتان

والبيت كله فى وحشة صامت

عبد الرحمن صدى

أشعث مستطاراً، ولا تزال منكسرة على صدره
فيتين ويتأوه من وقع صدماتها. ولقد ظل مرتمد
الفرائص يقلب ألحاظاً عصبية خاطفة من ناحية
أخرى، ثم قام متحاملاً فى انشاد وبطء، وعانى
أشد الجهد وأنكاه ليرفع قامته ويرد الى بدنه
المرتجف مشية الكبرياء المهددة، وقد أفلح بعد
لأى، وأخذ ينفذ التراب عن ركبتيه متمهلاً
متروياً، ولبس القبعة، ورسم إشارة الصليب ثلاثا
على القبر، ثم داف بخطوات متساوية ثابتة، غير
أن طرق المدفن ومعاله اختلطت عليه فضل السبيل
فوقف عند مفترق السالك جامدا فى مكانه
بضحك :

- ضللت السبيل !

وطالت وقفته برهة ثم عرج من غير تفكير
الى اليسار. وذلك أنه ما كان ليطبق الوقوف هنا
جامدا ينتظر. ونبمه الصمت على الأثر. وهذا هو
الصمت يخرج من اللجود المشوشة، وتتنفس
عنه الصليبان الداكنة المتجهمة، ويتصاعد نفحات
دقيقة خائفة من مسام الأرض النشمية جثثا ورماما
والأب اجنأتى يضاعف خطاه مسرعاً، وقد سدر
بصره وذهل عن نفسه، فهو يطوف بالمسالك بعينها
المرّة بعد الأخرى، واثيا فوق القبور، متمسكاً
بالحواجز، يهوى بكفه على الأكاليل من الصفيح
شائكة فيتمزق قماشها الرقيق الناعم فى يديه. ولقد
ذهل عن كل تفكير الا فكرة واحدة وهى الخروج
من هذا المكان. فاندفع من ناحية الى أخرى،
وأخيراً انطلق يمدو فى سكون، شبحا مديد القامة
لا تكاد تترفع فى برنسه الخافق وراءه، وشعره
التمهل المرسل فى الهواء

وان رؤية ميت قائم من القبر لأخف هولاً